Al-Mukhtar Journal of Social Science 41 (3): 392-418, 2023
Doi: https://doi.org/10.54172/n9xm0p68

Research Article **Open Access**

بنية الخبر في كتاب "الكناش "لأحمد زروق (ت899هـ)

محمود محمد ملودة [1]*

[1]*: كلية الآداب، جامعة مصراتة

المستخلص: مثّل الخبر في الدراسات السردية ملمحًا بنيويًّا، حيث قصر البحث فيه على الرسالة دون الخوض في السياق، فالبحث يتناول الخبر في ذاته ولا يأخذ في حسبانه مقصدية المؤلف ودلالة السياق السيري والاجتماعي والنفسي عليها، وإنما ينصب الجهد على النص نفسه، وتقوم الدراسة على فرضية أن كتاب الكناش لأحمد زروق يقع ضمن السرديات العربية القديمة، وتحديدا سرديات الخبر، فالخبر بما أنه جنس أدبي يتوزع على كامل المدونة السردية العربية، كان البحث عنه في كتاب ليبي قديم هدفا لوحده، فالمكتبة الليبية تحتاج إلى إظهار السرديات الليبية القديمة ودراستها. إن البحث في أدبية الخبر بكتاب الكناش لأحمد زروق يتطلب خطوتين؛ في الأولى إثبات أخبارية الكناش، وفي الثانية الانتقال إلى البحث في سرديتها – سردية الأخبار – بكون الأخبار ملفوظات ينجزها الراوي وتشكل خطابا يتوجه به إلى المروي له، وللتحقق من أخبارية الكناش ومدى سرديتها تم تقسيم البحث إلى محورين: الإسناد ومتن الخبر، وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج، حيث تأكد وجود الخبر الأدبي بالكناش، مع ملاحظة تباين درجة السردية فيه، وقلة سلسلة الأخبار، واعتمادها في السند على عبارات السماع، كان حضور الرواة عبر ضميري الغائب والمتكلم، وتراوح التعدد في الرواة ما بين الدرجة الثانية والثالثة، وهيمنت البنية البسيطة على الخبر مع سرعة السرد وقيام الأخبار على الايجاز والاختصار.

الكلمات المفتاحية: الخبر، السرد العربي، السند، الخطاب السردي.

***Corresponding author:**
Email:m.emluda67@gmail.com

Faculty of Arts – Misurata University

Received:
25 May 2023

Accepted:
4 September 2023

Publish online:
31 December 2023

The Structure of the Literary Account in the book "Al-Kunnash by Ahmed Zarrouk (d. 899 AH)

Abstract: In narrative studies, account represented a structural feature, as the research in it was limited to the message without delving into the context. The research deals with account in itself and does not take into account the author's intent and the significance of the biographical, social, and psychological context in it. Rather, the focus will be on the text itself, and the study is based on the assumption that the book Al-Kunnash by Ahmed Zarrouk falls within the ancient Arabic narratives, specifically account narratives, since it is a literary genre distributed throughout the entire Arabic narrative canon. Searching for it in an old Libyan book was a goal alone. The Libyan library needs to show the old Libyan narratives and study them. Thus, researching the literature of account in the Kunnash requires two steps: In the first, we prove the account of the narration in al-Kunnash, and in the second, we move on to research its narratology - the narrative of the account - since the acount is an utterance made by the narrator that constitute a speech that he addresses to his narratee. To verify the ccount of the narration and the extent of its narratology, the research was divided into two parts. The attribution and the body of the account. The research reached some results among them is that the presence of literary accounts in the Kunnash was confirmed, noting the varying degree of narration in it, the lack of chain of the account, and its dependence in the chain of transmission on hearing phrases. The presence of narrators was in the third person and first person pronouns, and the multiplicity of narrators ranged between the second and third degrees, Also, the simple structure dominated the account with rapid nature in narration. It is also noticed that account is based on brevity and conciseness.

Keywords: Account, Arabic narration, Attribution of accounts, Narrative discourse.

The Author(s) 2023. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/) , which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium , provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

المقدمة:

مدار الدراسة هو البحث في أخبارية نصوص الكناش، والكناش تقييدات متنوعة نثرية لأحمد الزروق ت899هـ، والذي اعتمدنا عليه هو الجزء الذي حققه د. علي فهمي خشيم، والمنشور بليبيا في ذكرى مرور 500 عام على رحيله[i]، وتعد دراسة علي فهمي خشيم توصيفا تاريخيا مهما للكناش، وقد تم تحقيقه وفق منهجية علمية منضبطة، وأوضح الأهمية التاريخية للكناش من خلال المعرفة الكبيرة التي يقدمها عن الحياة الاقتصادية الخاصة بالمغرب العربي، وكذلك يوضح دور المؤسسات الرسمية والخاصة بالمجتمع، واضعا أمامنا الحالة العامة في عصره، وما فيه من اضطرابات وآراء سياسية ودينية، وما يخالط ذلك من عادات وتقاليد ، غير أن دراسة علي فهمي خشيم لم تتناول الجانب الأدبي للكناش؛ لأن ذلك لم يكن من ضمن مشمولات دراسته.

أهداف البحث

يلاحظ الباحث قلة العناية بالخبر في المصنفات الليبية، ولذلك يهدف البحث إلى دراسة نص نثري ليبي يعد من أقدم النصوص السردية الليبية، ويتغيا البحث التحقق من أخبارية الكناش ومدى سرديتها، وهو بذلك يسد نقصا في المكتبة الليبية التي تفتقر إلى البحث في السرديات الليبية القديمة.

أسئلة البحث

ينطلق البحث من سؤال مفاده: ما الذي يجعل من نصوص الكناش أخبارا سردية؟، وهو سؤال عام يحيل على سؤالين آخرين: سؤال عن الإخبارية من جهة، وسؤال عن سردية الأخبار من جهة ثانية، السؤال الثاني، وكما هو بادٍ، منبثق من السؤال الأول.

منهج البحث

يتخذ البحث من المنهج البنيوي منطلقا له، ويعتمد تحديدا على الإجراءات البنيوية للنقاد العرب، حيث الخطوات النظرية التي قدمها كل من: محمد القاضي، وسعيد يقطين، وسعد جبار، ونتائجهم في دراساتهم للخبر العربي التي استفادوا فيها من دراسات بنيوية غربية متعددة.

وقُسِّم البحث إلى محورين:

–الإسناد: وفي هذا المحور سيُجاب عن الجزء الأول من السؤال بالكشف عن خبرية نصوص الكناش وعدمها

–متن الخبر: فيه سيُجاب عن الجزء الثاني من السؤال بالكشف عن مدى سردية أخبار الكناش.

توطئة

يعد الكناش أو الكناشة (ورد ينظر: العياشي5: 141، ابن غلبون 7: 255، وورد مؤنثا، ينظر: التنبكتي 2: 130، الزركلي 28: ج1–91)، أقدم نص نثري ليبي، فيما أعلم، ويعود إلى القرن التاسع الهجري، ويمكن أن نجد فيه حضورا واضحا للخبر، والكناش " لفظ ذاع في شمال إفريقيا بخاصة للتعبير عن مجموعة من كتابات عالم أو أستاذ، وأكثر ما تكون خليطا من الأفكار والأقوال والملخصات والذكريات والفوائد العلمية، إلى آخر ما يمكن أن يسجله صاحبه. ويبدو هذا– في مجمله– مزيجا من الكتابة وتسجيل الخواطر والشواهد على نسق علمي. فهو بهذا عبارة عن كشكول منوع غير متجانس في الغالب الأعم" (زروق 1 : 5)، ولم يصلنا من الكناش إلا القليل، وهذا القليل يتناول حياة المؤلف، فهو ترجمة وإخبار عن مراحل حياته الأولى، وغلب على صياغة هذا الشق الجانب الواقعي، فما يرويه الزروق وقع فعلا، وهو يخص حياته" يروي بعض أحداث السنوات الأربع والعشرين الأولى من حياته" (زروق 1 : 8)، فالراوي مشارك في كل ما يروي، ولذلك يستعمل في السرد ضمير المتكلم، وتتأسس واقعية الخبر في الكناش على "غياب سارد تخييلي من المحكي، فالمسافة التي قد يضعها المؤلف بينه وبين ما يحكي من أحداث يخلق سارد يتكلف بتقديم هذه الأحداث هي التي تمنح لكل عمل سردي خاصية اللاواقعية، في المقابل نجد أن الواقعية تقوم على إلغاء هذا السارد" (جبار 11 : 193).

إن الكناش في مجمله قصة حياة المؤلف، وهو متأثر في كتابته بنمط الكتابة المغاربية القديمة، حيث يحضر الخبر بوصفه علامة على قرب العهد بالتحول من الشفاهية إلى الكتابية، فكان هو الجنس الأدبي الذي اختاره المؤلفون المغاربة لتسجيل اليومي فالخبر "صور حياتهم، ورصدوا من خلاله مختلف الوقائع وما خلفته من آثار في المخيلة والوجدان، وعكسوا عبر توظيفهم إياه جل– إن لم نقل كل– صراعاتهم الداخلية والخارجية، كما تجسدت لنا من خلاله مختلف تمثلاتهم للعصر والتاريخ والكون وصور تفاعلاتهم مع الذات والآخر" (فاهم 24: 321).

والخبر بوصفه مصطلحا أدبيا له مرجعية لغوية، ففي لسان العرب "والخِبْر والخُبْر والخِبرة والخُبرة والمَخْبَرة كله العلم بالشيء" (ابن منظور 31: 783)، وتزيد الدائرة المعجمية دلالة مرادفة للعلم " وخبّره بكذا وأخبره: نبأه، واستخبره: سأله عن الخبر وطلب أن يخبره" (ابن منظور 31: 783)، ويتضح أن الدائرة المعجمية لمفردة الخبر تضم العلم والنبأ، وهما يتصلان بالوقائع والحوادث اتصالا مباشرا، فالخبر هو سرد حادثة أو واقعة، وهي في تحولها إلى خبر تتحول من مجرد إعلام بالحقائق إلى فن أدبي يتخذ من القص والتشويق وسيلته للوصول إلى المتلقي والتأثير فيه.

وبتتبع مصطلح الخبر في الدائرة المصطلحية التراثية، نجد وفق التراتبية الزمنية استخدامه للدلالة على الاستحضار التاريخي لأحداث مضت، تشكِّل في وقوعها واستدعائها عبرة وعظة، وجعل المنظر التراثي المعرفة بالأخبار علامة على اكتمال العقل وانفصال العارف بالأخبار عن الجاهل (القالي 3: ج1،3)، وفي كتابات منظري القرن الرابع الهجري يتحول مصطلح الخبر من الدلالة العامة إلى دلالة مخصوصة، فيتم ربط الخبر بالرواية، ويصبح الخبر فنا من الفنون، يتكون من عنصرين، مادة الخبر وراوي الخبر، وينتج من ذلك: الأخبار المستحسنة (الوشاء، 6:22)، والأخبار العجيبة (الجاحظ4: ج4،31) ، وجاء هذا التحور بعد أن توالت على المكتبة التراثية جملة من كثيرة من التآليف التي يدخل مصطلح الخبر من ضمن مفردات العنوان فيها من ذلك "أخبار اليمن لعبيد بن شرية الجرهمي (ت67هـ)، والأخبار الطوال لأبي حنيفة (ت130ت130هـ)، والأخبار الموفقيات للزبير بن بكار (ت256هـ)، وعيون الأخبار لابن قتيبة (ت267هـ)" (سويسي18:225)

المبحث الأول: السند

السند والإسناد يعني الرفع، و"أسند الحديث: ... رفعه إلى قائله" (القاضي17:227)، فالإسناد "عملية يقوم بها الراوي تتمثل في إنشاء خيط واصل بينه وبين مصدر الخبر، وهذا الخيط هو السند" (القاضي17:227). وبما أن السند مقتصر على رفع الحديث عن قائل، فعبارات (رأيت، وقلت، وشاهدت) وغيرها مما ليس فيها رفع عن آخر ليست بإسناد ولا سند، والسؤال لماذا يلجأ الزروق إلى السند في الكناش، وهو لا يروي خبرا تاريخيا ولا أثرا أو حديثا؟ لماذا يجعل صحة الخبر مرتبطة بالسند وليس الخبر نفسه؟ سيحاول هذا المبحث الإجابة عن هذين السؤالين، بزعم أن الزروق اختار الصيغة السردية (الخبر) بدل الصيغة المعرفية (التأليف) تأثرا بما قرأ في كتب الحديث والسيرة وتراجم الرجال وكتب الأخبار في التراث العربي، ولا شك بأن الزروق قد اطلع على سرديات الصوفيين قبله، ممن يأتي التركيز لديهم على المحتوى القصصي لإبراز وظيفة تعليمية تقود إلى شد المتلقي ودفعه إلى العبرة والاعتبار، واستكمالا لهذا البعد نجد الانتقال من واقعية الخبر وتاريخيته إلى غرائبيته ودخوله منطقة العجائبي تؤدي وظيفة مهمة وهي إضفاء بعد روحي للخبر، وبقي له الشكل فكان السند وفق النمط المتعارف عليه في دائرة التأليف العربي، ويحقق السند بذلك وظيفتين أساسيتين "تحقيق المصداقية الحكائية والتوثيق السردي من ناحية، وممارسة السارد لسلطته على المتلقي" (شعلان25:132) من ناحية أخرى.

والسند ليس مقتصرا على الحديث، بل إن الخبر بوصفه شكلا من أشكال السرد العربي القديم، يلتقي مع الحديث في انبنائه على سند ومتن (القاضي30:170)، ووظيفة السند في الحديث تختلف عن وظيفته في الخبر الأدبي، فهو " في الحديث النبوي لغرض التحقيق أي البرهنة على أنه حقيقي وقد صدر عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) فعلا، أما في الخبر الأدبي، فالإسناد وسيلة

للمشاكلة أي: إيهام القارئ أو السامع بأن الخبر ممكن الوقوع إن مداره على الأحداث، وممكن القول إن كان مداره على الأحداث" (التميمي23 :40)، ويبنى الخبر من القول بسبب انبنائه على سند ومتن، وهذا ما جعل ارتباط الخبر بالسند ارتباط إجناسي؛ فالسند شرط ضروري لوصف قول بالخبرية، والسند مشروط بالرفع عن قائل، ويصبح الكلام غير المرفوع عن قائل ليس بخبر، وتأسيسا على هذا الأساس النظري يمكن الإجابة عن الجزء الأول من السؤال وهو: ما الذي يجعل من نص الكناش خبرا؟ وذلك بالاحتكام إلى السند، أي النظر إلى وجوده أو غيابه.

إن دراسة السند في كتاب الكناش، لا تتم إلا بعد أن ننبه على ثلاث نقاط مهمة؛ الأولى أن كتاب الكناش تفرض علينا طبيعة كتابته ابتداء تصديق جميع الأخبار الواردة به، فهي تأخذ شكل الشهادة على مراحل سيرية، واختار تقديم سيرته على شكل أخبار متلاحقة ومتتابعة لتأكيد ذلك، والثانية أن السند في كتب الأخبار لا يدل غالبا على "واقعية الخبر، وإنما يوهم المتلقي بذلك، كما يوهم بصدق الكلام وحقيقته الحكائية" (لولو26 :34) والثالثة أن الكناش يحتوي على أخبار صوفية، وكثير "من السلوكات والأحداث التي تصادفها لا تجد لنفسها مبررا منطقيا في الواقع العادي للإنسان، ويستدعي تصديقها إيمانا خاصا بها وبأصحابها" (جبار11: 260).

وسيعتمد الباحث التأصيل النظري الذي قدمه محمد القاضي في التفريق بين ما يعد خبرا وما لا يعد ، حيث تأسس اجتهاده على اعتماد السند الفارق الأساس في ذلك التصنيف، إذ يرى أن ما يجمع بين الأخبار في التراث العربي "أن السند فيها كان في جل الحالات عنصرا ثابتا يمكن اعتباره مقوما أساسيا من مقومات الخبر، حتى إنه بدا لنا أن دراسة الأخبار بالاقتصار على متونها ليس أمرا مجافيا لطبيعة الخبر وحسب، وإنما أيضا وعلى وجه الخصوص مخل بدراسة الخبر؛ لأنه يهمل مدخلا مهما من المداخل التي تؤدي إلى فهم هذا الضرب من الإبداع" (القاضي17: 225)، وبالتمعن في الأخبار الواردة بكتاب الكناش، نجد ورود نصوصها على ثلاثة أنماط: نمط ورد دون عبارات إسنادية يتحدث فيها الراوي مباشرة دون أن يحيل على مصدر معلوماته، ونمط ثان: مصدّر بعبارات مسندة للمتكلم مدارها على البصر، ونمط ثالث: حفل بعبارات إسنادية مدارها على السمع، والنمطان الأولان بحسب تعريف الخبر الذي ارتضيناه لا يعدان من الخبر بسبب خلوهما من أهم شرط وهو الإسناد، في حين أن النمط الثالث يعد خبرا.

ثانيا: صيغ الإسناد

أ – (حدث) ومن الصيغ التي وردت بها:

1 – (حدثتني) وجاء ذلك في خبرين: "حدثتني جدتي أنه كان يختم في كل ثلاثة أيام" (زروق1: 18)، و"حدثتني جدتي أنه كان يختم القرآن في كل أسبوع" (زروق1: 19).

2 – (حدثني) حدثني شيخنا أبو عبد الله بن زمام– وكان صاحبه– أنه قال له: "كنت عاميا عفيفا صاحب همة وعزيمة، ما سبقني للضيف أحد قط بالمسجد، وكنت كلما جاءني ضيف أخذت من ثوبه خيطا فجعلته في كبة كانت عندي من ذلك، قد جعلتها في ذراعي مع الحرز، فلما كان ذات ليلة ألقيتها في النار، فاحترق نصفها وبقي النصف الآخر تلعب عليه النار ولا تحرقه، فاضطرني ذلك إلى التوبة، فتبت، وقلت في نفسي: ليس ثمة اليوم شيخ ظاهر في الأحياء، وإذن فلاتخذ الشيخ القادر والشيخ أبا يعزى وسيلة إلى الله، ثم نظرت فإذا زيارة الشيخ عبدالقادر غير ممكنة، فأقمت عند قبر الشيخ أبي يعزى واحدا وعشرين يوما، أقوم الليل وأصوم النهار، ولا أفتر عن الذكر، فنمت في آخر القائلة فإذا القبر قد انفتح وأتى رجل عليه عمامة كبيرة، فوقف على صاحبه وقال: أعطه حاجته، فقال: ما هي لي وحدي، فقال: اعطه، فأعطاني علما، فاستيقظت مسرورا به، فإذا برجل مصمودي على باب المسجد يقول: هنيئا بقضاء الحاجة، فقمت في طلبه فلم أجده ، ثم جرى حاله بعد ذلك" (زروق1: 22–23)، و "وحدثني شيخنا أبو عبدالله القوري– رحمه الله– أن سيدي أحمد تكلم مع سيدي عمر في أمر فقال سيدي أحمد: "يلطف الله"! فقال له سيدي عمر: "ومن قال لك يلطف"؟

فقال: "يا سيديّ حسن الظن بالله أولى من إساءة الظن به" (زروق1 : 18)، و "وحدثني عن والده أنه كان يصلي بركن جامع القرويين، فعمل فيه بعض الناس عقدا بذلك، ثم أحضره القاضي فكلمه، فقال: أنا مقر بفعل ما في هذا العقد، قال: ولم تفعل؟ قال أنا عارف بعلم النجوم، وقد أداني اجتهادي إلى أن القبلة في هذا الموضع الذي أصلي به، وإن كان ثمة من يعرف شيئا نتكلم معه؛ فإما أن يرجع إليّ أو أرجع إليه، قال له القاضي: ما سمعت قول الناس: اخطأ مع الناس ولا تصب وحدك، قال: كذلك قيل لأبي بكر رضي الله عنه حين أسلم وحده وأخطأ الناس كلهم، فتركه القاضي وقال لأصحابه: إلى هنا أبلغتمونا، أو ما في معنى هذا الكلام" (زروق1: 18).

3 _ (حدثت) في خبر واحد: "حدثت زوجته أنه كان يعمل الخوص بخفية ويعطيها رجلا لا يعرف أنها له، يبيعها ثم يتقوت بها في رمضان." (زروق1: 19).

4 – (حدثنا) أيضا ورد في خبر واحد: "وحدثنا أنه حفظ "مختصر مسلم" القرطبي، في كل خميس خمسة أحاديث كان أبوه يعطيه عليها درهما" (زروق1: 19).

ب – (قال) ومن الصيغ التي وردت بها:

1– (قال) وذلك في خمسة أخبار: "وقال: "هكذا يكون الفقيه، وإلا فلا"!" (زروق1: 19)، و"قال: وقلت له آخر تلك الليلة: أناس يذكرون فيك شأن الفاطمي، فاخرج؛ فقال: ما يدورون إلا ما يقطع رقابهم، والله يسلط عليهم من يقطع رقابهم، كرر الدعاء مرارا؛ فكان ظهور دعوته في عمر المغيطي" (زروق1: 19)، قال لي بعض أهل الصدق والعدالة في الأخبار: "رأيته في حياة الشيخ يأتيه بألواح مكتوب فيها كلام كثير منسوب إلى الخضر، فلا يقول له في ذلك شيئا. غير أنه أثنى عليه في ذلك كثيرا، فقال: جزاك الله عنا خيرا" (زروق1: 19)، وسألت بعض شيوخنا مرة: "مالك وعلم البوني؟" فقال: "رأيت سيدي يحيى ينظر فيه فأنكرت عليه، فقال: ابتلاك الله به!"، ولقد لقيني يوما وقال لي: "ما معنى الأولياء يظلمون الناس في أمورهم هكذا"؟ فقلت ما مقتضاه: إنما هي مجازاة وعقوبة من الله تعالى" (زروق1: 24).

2 – (قالت) في خبر واحد: " قالت جدتي: وعليه قرأت القرآن مع أبي. فقال لها: "يا بنية! من الغرائب كون المرأة تقرأ القرآن..." (زروق1: 18).

3 – (قالوا) وجاء ذلك على ثلاثة أخبار: "وقالوا: لم تفارقه الشمائل من كمه عاملا بها" (زروق1: 18)، و" قالوا: كان لا يقرئها إلا بابن يونس". (زروق1: 21)، و" قالوا: وكان يحفظ الجزولي المسبع على الرسالة عن ظهر قلب" (زروق1: 21).

جـ – (سمع) وجاء منه صيغتان:

1 – (سمعت) في ثلاثة أخبار:" فسمعت منه أنهم حسبوا الخارج من يده والداخل، فوجدوا الخارج أكثر" (زروق1: 21)، و"سمعت أنه كان يغلب عليه النحو، وأنه كان متصوفا، وأن سيدي عبدالله– ابن عمه– كتب له في كتاب: أقلل من علم الظاهر فإنه يقسي القلب، قلت بما يعرض فيه، لا بذاته "(زروق1: 20)، و" سمعت أنه قال لعلي بن يوسف: الله يتلف رأيك، فلم يستقم له رأي بعد" (زروق1: 26).

2 – (سمعته) في خبر واحد: "سمعته يقول: من سنة ثلاثة من هذه المائة وأنا أقرئ"(زروق1: 21).

د – (ذكر) ورد بثلاث صيغ:

1 – (ذكروا) في خبر واحد: "ذكروا أنه مات في باب الفتوح..." (زروق1: 21).

2 – (ذكرت) في خبر واحد: "وذكرت من خيرته أمورا حدثها بها، منها أنه دخل مدينة فاس وليس عنده شيء، واشتغل بنسخ الأمهات ودراسة التهذيب. وكان يسأل دارا ورزقا حلالا، قال: فبعت المدونة بثمن غال، فحرثت به، فصادف الغلاء عند الزرع، فاشتريت هذه الدار كما أحب واستمر لي الخير" (زروق1: 18–19).

3 – (ذكر) في خبر واحد: "وذكر خدمته لسيدي محمد بن عبد الله الزيتوني، والانتظام في سلكه ، وما جرى له معه من خرق العوائد في أول حاله في خدمته، فقال– نفعنا الله به–: دخول سنة سبعين وثمانمئة كنت في خدمة سيدي محمد بن عبدالله الشهير بالزيتوني، فكان يعرّفني في الأمور، وعرض له في تعمير زاوية بوقطوط من داخل باب الفتوح، فتكلم مع الكاتب ومن في معناه من أصحاب السلطان أن يخرجوا له بها ظهيرا، فأخرجوه، وكنت بها خديما للفقراء، فقدم علينا من تلامذة سيدي محمد الجزولي، قال الصغير: مات في صلاة الصبح إما في السجدة الثانية من الركعة الأولى، أو في السجدة الأولى من الركة الثانية" (زروق1: 26).

هـ – (بلغ) في صيغة واحدة: "بلغني ليلة أن الفقيه أبا عبد الله القوري جاءه سؤال في شأنه، فبادر إليه وقال: خرج من يدي" (زروق1: 26–27).

و – (شاع) ورد بهذه الصيغة في خبر واحد فقط "وقد شاع من أمره أنه يقول إنه وارث النبوة وإن له أحكاما تخصه كمثل قصة الخضر مع موسى عليه السلام، وإن الخضر حي ونبي مرسل، وإنه يلقاه، بل ويدّعي ذلك من دونه من تلامذته" (زروق1: 26–27).

تبين الصيغ التي وردت بها الأخبار تواتر بين السند والمتن عند الراوي الزروق، وهذا يبرز تأثره بالحديث بوصفه أحد المشايخ وله صلة وقرب بالأحاديث، والملفت للنظر أن السند جاء بعبارات إسنادية مدارها على السمع، وبالنظر إلى هذه العبارات السمعية التي يستعملها الراوي حين ينقل الخبر أو يعدد سلاسل رواته نجدها تتنوع ما بين عبارات (حدث)، وعبارات القول، وعبارات (السمع)، وعبارات (الذكر)، وعبارات (أبلغ)، وعبارة (شاع)، واقتصاره على استعمال صيغ (السماع) من بين كل صيغ الأداء في السند، لا يقلل من قيمة الخبر في الكناش، إذ أن هذه الصيغة من بين الأكثر حضورا في "أسانيد الأخباريين أو كتب أصحاب الأخبار" (القاضي17: 311).

وبما أن أحمد الزروق قريب الصلة بعلم الحديث فلابد أن استعماله لهذه العبارات نابع من وعيه بدلالاتها، فما دلالة تنويعه لهذه العبارات وهل لها علاقة بمعانيها واستعمالاتها في الحديث؟

ففي علم الحديث عبارات (حدث وقال وذكر وسمع)، كلها تدور حول دلالة عامة وهي سماع القول، والملاحظ أن هناك فارقا في استخدام هذه الصيغ في الأخبار بين المشرق العربي ومغربه، فلفظ حدث في الأخبار المشرقية لا تفيد دلالتها كما في علم الحديث، أي لا تعني صحة نسبة القول إلى صاحبه، بل تستخدم كأداة سردية "وكان الجاحظ أول من اصطنعها منذ القرن الثالث للهجرة" (عباس27:6) وعلى العكس من ذلك، فإن مؤلفي الأخبار في المغرب العربي، والزروق واحد منهم، فإن حدث وبلغ في الأخبار تحملان الدلالة نفسها في علم الحديث، "فعلى القول الشائع يحمل ما إذا قال حدثنا على السماع من الشيخ" (يقطين14: 193).

وعلى الرغم من أن صيغ الإسناد ضمن دائرة السماع (حدث، سمع، قال، ذكر...) متقاربة، إلا أن التأثر بعلم الحديث أوجد دلالات ومعان منضبطة يختص بها كل لفظ تبين الكيفية التي تم بها السماع، فلفظ (حدث) تدل على أن الراوي خوطب بما ينقله ويروي له مباشرة، أي تستعمل عندما "يقصد بروايته الراوي" (القاضي17: 224)، وتستعمل (سمع) إذا قصد المحدث: "في الراوية شخصا

آخر" (القاضي17: 224) أي تدل على أنه سمع ولكن ليس هو المخاطب، و(ذكر وقال) تدلان على سماع المذاكرة، وعلى ما وجد مكتوبا، وهناك من جعل قال بمعنى حدث. (القاضي17: 224).

وبتتبع استعمال: (حدث) و(قال) و(ذكر) في أخبار الكناش نجد أن الراوي يستعملها للدلالة على السماع ولا يلتزم الفروق الأخرى التي تميز بينها، حيث نجده يستعملها جميعا عند نقله عن جدته: (حدثتني جدتي، قالت جدتي، ذكرت جدتي)، فجميعها استعملها فيما سمعه مباشرة من جدته وخاطبته به، وأيضا استعمل (ذكر وحدث وقال) في حال السماع دون أن يخاطب هو به، وهو ما نستدل عليه من قوله: (ذكروا، قالوا، حدثت زوجته) فجميعها ليس فيها دلالة على أنه هو من خوطب بما سمعه.

وبتتبع استعمالات الزروق عبارة (سمع) في الكناش نجد أنه استعملها للدلالة على السماع الذي لم يخاطب به هو بذاته وهو ما نستدل عليه بقوله: "حضرت مجلسه بجامع القرويين فحزرته بنحو ثلاثة آلاف رجل. سمعته يقول: ..." (زروق1: 22) فالراوي الزروق لم يكن وحده في المجلس بل معه نحو ثلاثة آلاف رجل، والخطاب لم يوجه له بذاته وإنما ذكر في هذا المجمع فسمعه كمن سمع. وعلى هذا تحمل دلالات السماع في قوله: وقدم للفتيا شيخنا أبو عبد الله محمد القوري. فسمعت منه أنهم حسبوا الخارج من يده..." (زروق1: 19)، وقوله: "سمعت أنه قال لعلي بن يوسف: "الله يتلف رأيك"! فلم يستقم له رأي بعد" (زروق 1: 26)

وفيما يتعلق بمسألة الجمع والإفراد فمعلوم أن عبارة (حدثني) في علم الحديث تدل على "ما سمعته من العالم وحدي" (القاضي17: 224)، وعبارة (حدثنا) تدل على "ما سمعته مع الجماعة" (القاضي17: 224)، وبتتبع استعمال عبارة حدثني وحدثنا عند الزروق نجد أنه استعملها بشكل واع لما عليه استعمالها في علم الحديث، حيث نجد أنه استعمل الصيغة المفردة (حدثني، أو حدثتني) عند تلقيه الخبر وحده ، فيقول: (حدثتني جدتي، حدثني شيخنا..)، فالحديث هنا سمعه وحده من الجدة ومن الشيخ، أما استعماله للجمع (حدثنا) فيبدو أنه سمعه وهو مع جماعة وهو ما تجسد في: "وحدثنا أنه حفظ "مختصر مسلم" القرطبي" (زروق1: 19) ويؤكد ذلك أنه كان يتردد على الشيخ وعلى مجلسه، واستعمال عبارات السماع في أخبار الكناش تأخذ المنحى التوثيقي، فهو يسجل بالخبر ما سمعه ، وهذا التوظيف للخبر من هذه الناحية يتفق مع ما هو ملاحظ على الخبر في التآليف العربية من كونه " وسيلة من وسائل الأرشفة" (جليس20: 72).

وبما أن كلمة (بلغ) تستعمل عندما يكون "الراوي غير واثق من نسبة الكتاب إلى صاحبه؛ فعلى الأرجح أن الراوي أحمد الزروق استعملها بذات الدلالة وذلك في قوله: بلغني ليلة أن الفقيه أبا عبد الله القوري جاءه سؤال في شأنه، فبادر إليه وقال: خرج من يدي" (زروق1: 26–27)، فعبارة (بلغ) تفيد أنه غير واثق من نسبة الخبر إلى صاحبه.

ثالثا: سلسلة الإسناد

1 _ مسالك السند

نلحظ في أخبار الكناش اهتماما واضحا بذكر الرواة الذين نقل عنهم الخبر وهي أيضا سمة في الخبر الأدبي حيث اعتنى الأخباريون "بذكر المسالك المتعددة التي أفضت بهم إلى الوقوف على أصل الخبر" (زروق1: 26–27)، بيد أن جميع الأسانيد في الكناش كانت قصيرة لم تتعد حلقتين بل تكون– أحيانا– حلقة واحدة كما يتضح من الخطاطة الآتية:

1- الزروق ⟵ جدتي (جدة الزروق)

2- الزروق ⟵ جدتي (جدة الزروق)

3- الزروق ⟵ الشيخ أبو عبد الله القوري

4- الزروق ⟵ العبدوسي

5- الزروق ⟵ الأمير يحيى بن زيان

6- الزروق ⟵ (ضمير جمع)

7- الزروق ⟵ ؟ ⟵ زوجته (زوجة العبدوسي)

8- الزروق ⟵ جدتي (جدة الزروق)

9- الزروق ⟵ جددته ⟵ الوزروالي

10- الزروق ⟵ لم يذكر عمن سمعه

11- الزروق ⟵ (ضمير جمع) قالوا

12- الزروق ⟵ (ضمير جمع) ذكروا

13- الزروق ⟵ المغيلي

14- الزروق ⟵ قالوا (ضمير جمع) يعود إلى (جماعة كثيرة)

15- الزروق ⟵ الشيخ أبو عبد الله بن زمام ⟵ العطار

16- الزروق ⟵ الشيخ أبو عبد الله القوري

17- الزروق ⟵ الشيخ أبو عبد الله القوري ⟵ والده

18- الزروق ⟵ ؟ ⟵ أبوزكريا

19- الزروق ⟵ ؟ ⟵ سيدي أبوزكريا

20- الزروق ⟵ ؟ (قال)

21- الزروق ⟵ ؟ (بلغني)

22- الزروق ⟵ ؟ شاع

23- الزروق ⟵ بعض أهل الصدق والعدالة في الأخبار

24- الزروق ⟵ بعض شيوخنا

25- الزروق ⟵ العطار

يبدو جليا أن المهيمن على السند الإسناد القصير الذي لم يتعد الحلقة الثانية، فأغلبه ورد بحلقة واحدة، وإحدى تلك الحلقات منقطعة عن الراوي الثاني (الزروق) وهو ما يتجسد في السند (7)، ويعود سبب اقتصار السند على حلقة إلى كون الزروق عاصر من نقل له الخبر وناقل الخبر عاصر الحدث أو القول المخبر به، وسبب اقتصاره على حلقتين يرجع إلى كون الزروق عاصر من نقل له الخبر ومن نقل له الخبر لم يشاهد المخبر عنه وإنما نقله له راو آخر عاصر المخبر عنه.

وتكشف الخطاطة السابقة تعدد الرواة وتراوح تعددهم ما بين الراوي من الدرجة الثانية وهو " راو يتولى رواية القصة الأولية دون أن يكون مدرجا فيها من قبل أي طرف آخر" (الخبو16: 250) وراو من الدرجة الثالثة عندما "يوكل الراوي الذي هو من درجة ثانية الرواية إلى راو آخر"(الخبو16: 250)، وتبين الخطاطة أيضا أن الراوي الزروق في بعض الأخبار كان راويًا من الدرجة الثانية وفي بعضها كان راويًّا من الدرجة الثالثة.

2- أسماء الرواة وصفاتهم

وتطغى على أخبار الكناش الوظيفة التوثيقية كونه يكتب من محيطه وعن أحداث شهدها وعاصرها، والمفارقة أن ذلك الحس التوثيقي لم ينعكس على ذكر أسماء الرواة أو التوسع بذكر صفاتهم، إذ يلحظ إهماله الشديد لهذه الجانب، ومن بين القليل هذا نجد خبرين فقط ذكر فيهما اسم الراوي: (شيخنا أبو عبد الله القوري)، و(شيخنا أبو عبدالله بن زمام- وكان صاحبه- قال له)، ويلحظ في هذا الإسناد الأخير أنه ذكر اسم الراوي مع ذكر علاقته بالمروي له وذكر صفته فقال: (وكان صاحبه)، ربما لأن الخبر كان عجائبيا وفي الوقت ذاته غير شائع، بل ربما معرفته مقصورة على من روى الخبر(أبو عبد الله)، بذا الأمر احتاج إلى التعريف بالراوي من جهة أولى من حيث علاقته بالمخبر عنه فقال (صاحبه) حتى يفسر كيفية وصول الخبر إلى (أبوعبدالله)، وحتى يبين لما اختص بمعرفته دون غيره من المعاصرين له، وهو كونه صاحبه وقريب منه، ومن جهة ثانية قال (شيخنا) فهذه الصفة تقتضي ضمنا أن ما يقوله صادق، ومن ثم يحمل القارئ على تصديق الخبر مع عجائبيته.

وبالمقابل نجد أكثر الأخبار لا يذكر فيها أحمد الزروق أسماء الرواة، وإنما يكتفي بالإشارة إليهم بوصف علاقة القرابة التي تربطه بهم كما في (حدثتني جدتي)، أو علاقة القرابة التي تربط الراوي الأولي بالمخبر عنه كما في (حدثت زوجته)، وربما يعود سبب ذكر علاقتها بالمخبر عنه إلى كون الخبر ينقل حدثا يقوم به المخبر عنه خفية،

مما يؤكد أن العمل لن يعلمه أحد إلا إذا كان شخصًا ملازمًا له قريبًا منه، فذكر صلة الراوي الزوجة بالمخبر عنه، كما يلحظ أنه يذكر صلة القرابة دون التصريح بالاسم عندما يكون الراوي امرأة.

أو يقتصر على الإشارة إلى صفة من صفات الراوي كما في قوله: (قال لي بعض أهل الصدق والعدالة في الأخبار) وكأنه يمهد للخبر الذي سيليه وينبئ بأنه غير متوقع، ولأن الأخبار جلها مبنية على أحداث من سيرته الذاتية، فإن تركيزه كان كبيرا على أخبار شيوخه ومن تواصل معهم من دائرة العلم والتعلم، وتكاد الثيمة الأساسية للخبر في دائرة شيوخه لا تغادر الفرج بعد الشدة، فهي سردية متتابعة عن توالي الشدائد ثم التحول عنها إلى الفرج، وهذا متسق مع الخلفية الصوفية للشيخ زروق ويمكن عد الخبر في الكناش دليلا على عقيدة الزروق في التوكل بخلفيتها الصوفية.

وفي غير هذه الدائرة التعليمية يكتفي الخبر في الكناش بالإلماح إلى وجود رواة كما في (قالوا، ذكروا) وهو في هذا يلتقي مع بعض الأخباريين في القرن الرابع الذين لم يولوا الإسناد أهمية وأهملوه بسبب انتشاره بين الناس وتداوله في الكتب (القاضي17: 300)، وربما يرجع السبب في إهمال الزروق السند إلى شيوع الخبر بين الناس، وربما إلى عدم الإمكان إلى رده إلى قائل بعينه.

وما ينبغي الإشارة إليه أن إغفال كثير من الأخبار السابقة التصريح بأسماء الرواة لا يخرجها عن دائرة الإخبار لأن كثيرا من الأخبار في التراث العربي تغفل ذكر أسماء الرواة وتكتفي بالإشارة إليهم بذكر علاقة الراوي بهم أو انتمائهم القبلي أو مهنتهم أو تكتفى بالإلماح إلى وجود الرواة (القاضي17: 314).

وإن كان السند ضروريا وكافيا لجعل النصوص أو النماذج السابقة أخبارا، ولكن لتكتسب سمة السردية ثمة خصائص يجب أن يتسم بها الخبر ليصبح خبرا سرديًا، وهذا البعد السردي هو الذي يجعل الخبر داخلا في التصنيف الأدبي ويبعد به عن الانقطاع إلى الجانب المعرفي والتاريخي، والسمة السردية تقاس بعلاقة الخبر بالزمن وبالراوي، " إذ ارتباط الخبر بماض بعيد أو قريب تطلب وجود راو لنقل ذلك الحدث، وهو أمر يحتاج بطبيعة الحال إلى وجود سلسلة سندية تربط بين الراوي كلما ابتعد نقل الخبر زمنيا، واحتمالية الصدق والكذب فيه تجعل الكثير من تلك الأخبار داخلة في حقل الأدب لا التاريخ، أي إن الراوي قد أدخل فيها عنصر الخيال، وتتابع نقل الحدث يجعل من الخبر وحدة سردية مستقلة (بنية) تشتمل على كل مكونات الأنواع السردية الأخرى" (التميمي23: 39).

رابعا: معلنات السند

ومعلوم أن الكناش في مجملها نص واحد يشكل سيرة ذاتية لمؤلفها، لكن لن نتعامل مع الأخبار الواردة فيها بوصفها خبرا واحدا وإنما سنتعامل معها بوصفها مجموعة أخبار بحسب سلسلة السند التي يفتتح به كل خبر، وبما أن الخبر "وحدة سردية مستقلة" (القاضي17: 300).

سنحاول أن نتعامل مع الأخبار وفق ما تتحقق فيها من استقلالية أي حسب ما يتضمنه من وحدة سردية مستقلة مكتملة بأحداثها وشخصياتها، ومعرفة هذه الاستقلالية تتطلب تحديد بداية الخبر ونهايته، وسنعتمد في ذلك على المعايير الشكلية التي ذكرها القاضي وتتمثل في سمة أساسية و"هي سلسلة السند التي تنبئ ببداية الخبر وتفيد – تبعا لذلك– نهاية الخبر السابق له. وإن لم نجد سلسلة سند في بداية الخبر فإننا نعتمد ما يقوم مقامها في إنماء الحديث إلى شخص أو أشخاص" (القاضي17: 300) وإن لم يتلُ الخبر سند جديد يفيد نهايته فإننا نستدل على انتهائه "بتغيير موضوع الحديث [أو] تغير الشخصية أو الحدث أو المقام" (القاضي17: 300) مما "ينبئ بأن الملفوظ السردي مكتف بذاته، مستقل عما سبقه. على أن هذه العناصر وغيرها تعد ثانوية بالنسبة إلى العلامة الرئيسة التي يختص بها الخبر وهي السند" (القاضي17: 355).

ولاحظ سعيد جبار أن " الخبر في الثقافة العربية الإسلامية وخلال القرون السبغة الأولى من الهجرة عرف هيمنة ثيمات تقليدية تبلورت في الأخبار الشفاهية التي سادت في مجالس المسامرات العربية، وحلقات الدرس، وارتبطت على الخصوص بالجانب التعليمي" (جبار11: 266)، بالانطلاق من هذه السمات وبالنظر إلى الأخبار في الكناش نجد أن عددا كبيرا منها تتضح فيه صفات المشافهة، فهو ينقل شفاهة عن شيوخه، ولذلك تتحدد بداية الخبر في الكناش بالسند سواء بذكر سلسلة الرواة أو بإسناد القول إلى شخص ما، ونهض بالإعلان عن نهايته بداية سند جديد، ومن ذلك ما نجده في الأخبار الآتية: "**فسمعت منه** أنهم حسبوا الخارج من يده والداخل فوجدوا الخارج أكثر[...] **وحدثنا**" (زروق1: 19)، "**وقالوا**: لم تفارقه الشمائل من كمه عاملا بها[...] **وحدثت زوجته**" (زروق1: 19)،"**حدثني جدتي** أنه كان يختم القرآن[...] **وذكرت من خيرته**" (زروق1: 19)، "**ذكرت** من خيرته أمورا حدثها بها... واستمر لي الخير/ **سمعت أنه**" (زروق1: 20)، "**وحدثني شيخنا القوري** رحمه الله أن سيدي أحمد تكلم... فقال "يا سيدي! حسن الظن بالله أولى من إساءة الظن به [...] **وحدثني عن والده**" (زروق1: 25)، "**سمعت منه** أنه قال لعلي بن يوسف... فقال: ابتلاك الله به [...] **وسألت بعض شيوخنا مرة**" (زروق1: 26)، "وسألت بعض شيوخنا مرة:... فقال: ابتلاك الله به [...] **وذكر** خدمته لسيدي محمد بن عبد الله الزيتوني" (زروق1: 26)، "**وذكر** خدمته لسيدي محمد بن عبد الله الزيتوني ...فقال–نفعنا الله به: "دخول سنة سبعين وثمانمائة [...] **قال** "وقلت له آخر تلك الليلة" (زروق1: 26)، "**قال** "وقلت له آخر تلك الليلة: أناس يذكرون فيك [...] فكان ظهور دعوته في عمر المغيطي [...] **بلغني** ليلة أن الفقيه أبا عبد الله جاءه سؤال في شأنه" (زروق1: 26)، "**بلغني** ليلة أن الفقيه أبا عبد الله جاءه سؤال في شأنه[...] وقد **شاع** من أمره" (زروق1: 26)، "وقد **شاع** من أمره أنه يقول [...] **وقال لي** بعض أهل الصدق والعدالة في الأخبار: رأيته" (زروق1: 26)، ونلحظ أن كثيرا من الأخبار التي تبدأ بإسناد الخبر لشخص دون ذكر السند لا تنهض بنفسها للدلالة على نهاية الخبر الأول وبداية الخبر الذي يليه ، بل يدعمها ويؤكدها تغير الموضوع أو مكان الحدث أو الشخصيات؛ ذلك لأن مجرد إسناد القول لشخص نجده داخل الخبر الواحد في الحوار ما بين الشخصيات.

وثمة أخبار يظهر فيها السند– سلسلة الرواة أو إسناد القول إلى شخص– بوصفه معلن بداية ويغيب بوصفه معلن نهاية[ii]، فنهض تغيير الموضوع بدور معلن البداية للخبر ومعلن النهاية كما في قوله: "وحدثنا أنه حفظ مختصر مسلم للقرطبي[...] وكان لا يدخر شيئا حتى لم يوجد له حين مات إلا بدنان"، (زروق1: 19)، "وقال: هكذا يكون الفقيه وإلا فلا [...] وكان يشترط.." (زروق1: 19)، "وحدثت زوجته أنه كان يعمل الخوص...ومناقبه –رحمه الله– كثيرة" (زروق1: 19)، و"سمعت أنه كان الغالب عليه النحو[...] توفي– رحمه الله– ..." (زروق1: 19)، "قالوا: كان لا يقرئها إلا بابن يونس/ وكان الغالب عليه المسكنة" (زروق1: 21)، "وذكروا أنه مات في باب الفتوح [...] وترك ولدا لم تقر له بعد غيبته عبرة [...] ثم الشيخ العالم الفقيه القاضي العالم، أبو الحسن" (زروق1: 22)، "وحضرت مجلسه بجامع القرويين [...] سمعته يقول: من سنة ثلاثة من هذه المائة وأنا أقرئ القرآن [...] وحضرته في مسجد آمنة بنت السلطان" (زروق1: 22)، "قالوا كان يحفظ الجزولي [...] توفي" (زروق1: 22)، "حدثني شيخنا أبو عبد الله... ثم جرى حاله بعد ذلك[...]عاينت من أمره أن" (زروق1: 22)، "ولقيني يوما وقال لي: ..إنما هي عقوبة من الله تعالى [...] ومما وقع لي ليلة" (زروق1: 22)،"وحدثني عن والده أنه كان يصلي [...] إلى هنا أبلغتموني [...] توفي" (زروق1: 22)، "وقال لي بعض أهل الصدق والعدالة في الأخبار: "رأيته... فقال جزاك الله عنا خيرا [...] وكان افتتاح أمره أن قام" (زروق1: 27).

فإننا بعد أن أثبتنا أخبارية بعض نصوص الكناش سننتقل في المحور الثاني إلى التعرف على مدى تحقق درجة السردية في تلك الأخبار بتتبع تلك الخصائص في الأخبار السابقة، وذلك بالانطلاق من سؤال ما الذي يجعل أخبار الكناش أخبارا سردية؟

المبحث الثاني: متن الخبر

أولا – مستوى الخبر

أ – خصائص الأخبار السردية

1– الاستقلال

أولى خصائص الخبر تضمنه بنية حدثية مستقلة (القاضي17: 351)، وهذا متسق مع نسق الكتابة عند الزروق، فوحدة الحدث يجعل الخبر "يبتعد عن التشعبات الكثيرة التي تقتضي المرور عبر فضاءات متعددة مكانية وزمانية، كما يعد عنصرا حيويا يوهم بالواقعية لأنه يقتضي استحضار أحداث من الواقع والاستناد إلى سرد أفعال غريبة أو عجيبة ترتبط بشخصيات تاريخية اشتهرت بالصلاح، وهذا تمثله نسبة كبيرة من أخبار العلماء والأئمة والزهاد والمتعبدين وغيرهم من أهل الصلاح المنتشرة في كتب السير وتراجم الطبقات والتاريخ" (فغالي35:32)، وبالنظر إلى جميع الأخبار عينة الدراسة نجدها تشكل وحدة مستقلة مبنية على بنية حدثية واحدة، تشكل مركز الأحداث وتتمحور حولها بقية الأحداث وتترابط زمنيا وسببيا، ويمكن تبين ذلك بالوقوف على أحد تلك الأخبار؛

ففي خبر العبدوسي: "حدثت زوجته أنه كان يعمل الخوص بخفية ويعطيها رجلا لا يعرف أنها له، يبيعها ثم يتقوت بها في رمضان." (زروق1: 19) هذا الخبر يدور حول بنية حدثية مركزية واحدة وهي (الصدقة)، تدور جميع الأحداث حولها، فعمل العبدوسي للخوص خفية لأجل التصدق بها، وإعطائها لرجل صدقة، وبيع الرجل واقع على الصدقة، وتقوته في رمضان بثمن الصدقة، والوحدة الحدثية (الصدقة) هي ما جعلت الخبر ينهي عند (ثم يتقوت بها في رمضان) وأخرجت (ومناقبه كثيرة) رغم اتصالها بها شكليا لأنها تشير إلى مناقب أخرى غير الصدقة، وجميع الأحداث تترابط زمنيًا؛ فكانت البداية بعمل الخوص للتصدق بها، ثم التصدق بها على رجل، ثم بيع الصدقة، ثم التقوت بثمن الصدقة، وهذا ما نجده في جميع الأخبار.

2- الإيجاز والاقتصاد

يتميز الخبر العربي القديم بالإيجاز والاقتصاد وقليل جدا ما جاء موسعا (القاضي17: 353)، ويرى بعض النقاد أن الإيجاز سمة أسلوبية، فالملاحظ في الخبر "غياب خطابات التعليق التي تكشف عن أفكار الشخصيات وتبرر مواقفهم وسلوكياتهم، فالسارد في الخبر يلتزم بتقديم ما هو مهم وأساسي، ويهم الحدث في ذاته دون الاهتمام بالوسائل والأدوات التي تقدم هذا الحدث" (جبار11: 129) وهو ما نجده في تلك الأخبار إذ جاءت جميعها موجزة مقتصدة في أحداثها وذلك ناتج عن استعمال الأسلوب المجمل والحذف كما سيتضح لاحقا.

3- البنية البسيطة

أغلب الأخبار في الأدب العربي القديم تمتاز ببنيتها البسيطة، وهي بنية قائمة على إيراد قول حكيم أو مأثور أو تقوم ثنائية سردية واحدة ترد مفردة أو تتكرر في الخبر الواحد، وهذه البنى تتمثل في بنية الطلب والاستجابة، والفعل ورد الفعل وسمها بالمخالفة، وبنية التحويل، وبنية اللغز، وقليل منها ما جاء مركبا (القاضي17: 362).

وبالنظر إلى أخبار الكناش نجدها تتسم بالبنية البسيطة والبنية المهيمنة فيها بنية الطلب والاستجابة ثم بنية التحول.

1- بنية الطلب والاستجابة

وقد وردت بنية الطلب والاستجابة في الكناش على النحو الآتي: منها ما كانت في شكل استخبار واخبار كما في خبر العطار "ولقد لقيني يوما وقال لي: ما معنى الأولياء يظلمون الناس في أمورهم هكذا فقلت ما مقتضاه: إنما هي مجازاة وعقوبة من الله تعالى" (زروق1: 27)، فالخبر مبني على الطلب المتمثل في استخبار العطار "ما معنى الأولياء يظلمون الناس في أموالهم هكذا" وجواب الزروق "إنما هي مجازاة وعقوبة من الله تعالى"، وخبر الفيلالي "وحدثني شيخنا أبو عبدالله القوري– رحمه الله– أن سيدي أحمد تكلم مع سيدي عمر في أمر فقال سيدي أحمد: يلطف الله، فقال له سيدي عمر: ومن قال لك يلطف؟ فقال: يا سيديّ حسن الظن بالله أولى من إساءة الظن به" (زروق1: 25)، حيث بني الخبر على سؤال سيدي عمر: "ومن قال لك يلطف؟" وجواب سيدي أحمد "يا سيدي حسن الظن بالله أولى من إساءة الظن"، وخبر

صاحب الظهر وسألت بعض شيوخنا مرة: "مالك وعلم البوني؟ فقال: رأيت سيدي يحيى ينظر فيه فأنكرت عليه، فقال: ابتلاك الله به!" فالخبر متمحور حول سؤال الزروق "مالك وعلم البوني" والجواب المتمثل في "رأيت سيدي يحيى ينظر فيه فأنكرت عليه، فقال ابتلاك الله به!" (زروق1: 26).

ومنها ما جاء في شكل أمر وتنفيذه كما في خبر الفشتالي "قالت جدتي: وعليه قرأت القرآن مع أبي. فقال لها: يا بنية! من الغرائب كون المرأة تقرأ القرآن ولكن عليك بسورة السجدة وتبارك الذي بيده الملك واقرأي بهما في كل ليلة؛ فإنهما لك كقيام ليلة القدر، فما رأيتها تتركهما حتى لقيت الله" (زروق1: 18)، حيث أنبنى هذا الخبر على ثنائية الطلب المتمثل في الأمر" لكن عليك بسورة السجدة وتبارك الذي بيده الملك [...] اقرئي بهما كل ليلة" وحصول الطلب ونجاحه "فما رأيتها تتركهما حتى لقيت الله".

ومنها ما كان في صورة دعاء واستجابة الدعاء كما في خبر أبي زكريا يحيى صاحب الظهر "سمعت أنه قال لعلي بن يوسف: "الله يتلف رأيك" فلم يستقم له رأي بعد" (زروق1: 26)، فقد أنبنى على الطلب المتمثل في دعاء سيدي يحيى "الله يتلف رأيك" واستجابة الدعاء "فلم يستقم له رأي بعد"، وامتداد له خبر صاحب الظهر ودعوة عمر المغيطي" قال: وقلت له آخر تلك الليلة: أناس يذكرون فيك شأن الفاطمي، فاخرج؛ فقال: ما يدورون [بمعنى يبغون] إلا ما يقطع رقابهم، والله يسلط عليهم من يقطع رقابهم، كرر الدعاء مرارا؛ فكان ظهور دعوته في عمر المغيطي" (زروق1: 26)، إذ أنبنى على دعوة سيدي يحيى: "والله يسلط عليهم من يقطع رقابهم" وحصول الطلب باستجابة الدعوة "فكان ظهور دعوته في عمر المغيطي".

ومنها ما جاء في شكل طلب وحصول الطلب كما في خبر الوزروالي نقلا عن جدته: "وذكرت من خيرته أمورا حدثها بها، منها أنه دخل مدينة فاس وليس عنده شيء، واشتغل بنسخ الأمهات ودراسة التهذيب. وكان يسأل دارا ورزقا حلالا، قال: فبعت المدونة بثمن غال، فحرثت به، فصادف الغلاء عند الزرع، فاشتريت هذه الدار كما أحب واستمر لي الخير" بني الخبر على طلب الرزق الحلال: "كان يسأل دارا ورزقا حلالا"، وحصول الطلب: "فاشتريت الدار كما أحب".

وكذلك في خبر الفيلالي جاء فيه " بلغني ليلة أن الفقيه أبا عبد الله القوري جاءه سؤال في شأنه، فبادر إليه وقال: خرج من يدي" (زروق1: 26-27)، فقد بني الخبر على سؤال الفقيه أبي عبد الله في شأن سيدي يحيى، وعدم حصول الاستجابة برده "خرج من يدي".

2- بنية التحويل

أما بنية التحويل نجدها في خبر العطار حيث تحول وضع الرجل من الحاجة إلى سد الحاجة وعامل التحول صدقة الشيخ "حدثني شيخنا أبو عبد الله بن زمام- وكان صاحبه- أنه قال له: "كنت عاميا عفيفا صاحب همة وعزيمة، ما سبقني للضيف أحد قط بالمسجد، وكنت كلما جاءني ضيف أخذت من ثوبه خيطا فجعلته في كبة

كانت عندي من ذلك ، قد جعلتها في ذراعي مع الحرز، فلما كان ذات ليلة ألقيتها في النار، فاحترق نصفها وبقي النصف الآخر تلعب عليه النار ولا تحرقه، فاضطرني ذلك إلى التوبة، فتبت، وقلت في نفسي: ليس ثمة اليوم شيخ ظاهر في الأحياء، وإذن فلاتخذ الشيخ القادر والشيخ أبا يعزى وسيلة إلى الله، ثم نظرت فإذا زيارة الشيخ عبدالقادر غير ممكنة، فأقمت عند قبر الشيخ أبي يعزى واحدا وعشرين يوما، أقوم الليل وأصوم النهار، ولا أفتر عن الذكر، فنمت في آخر القائلة فإذا القبر قد انفتح وأتى رجل عليه عمامة كبيرة، فوقف على صاحبه وقال: أعطه حاجتاه، فقال: ما هي لي وحدي، فقال: اعطه، فأعطاني علما، فاستيقظت مسرورا به، فإذا برجل مصمودي على باب المسجد يقول: هنيئا بقضاء الحاجة، فقمت في طلبه فلم جده، ثم جرى حاله بعد ذلك" (زروق1: 22–23)، وخبر الوزروالي "وذكرت من خيرته أمورا حدثها بها، منها أنه دخل مدينة فاس وليس عنده شيء، واشتغل بنسخ الأمهات ودراسة التهذيب. وكان يسأل دارا ورزقا حلالا، قال: فبعت المدونة بثمن غال، فحرثت به، فصادف الغلاء عند الزرع، فاشتريت هذه الدار كما أحب واستمر لي الخير" (زروق1: 19–20)، وأيضا يمكن أن يصنف بأنه بني على التحويل؛ تحول الشيخ الوزروالي من وضع الفقر والحاجة إلى الدار والرزق الحلال إلى وضع سد الحاجة والغنى بالحصول على الرزق والدار وعامل التحول مركب من ثلاثة عوامل: بيع المدونة ثم العمل في الفلاحة وأخيرا نجاحه في بيع منتوجه في موسم الغلاء.

وهيمنة البنية البسيطة على الأخبار "لا تنفي وجود ظاهرة أخرى تتمثل في قيام عدد من الأخبار على بنية مركبة" (القاضي17: 362) وهي على نوعين: النوع الأول "ينشأ من تكرار لبنية بسيطة واحدة أو من جمع بين بنيتين بسيطتين مختلفتين" (القاضي17: 362)، والنوع الثاني "ينشأ من بنية التضمين [...] وهي تعني احتواء قصة قصة أخرى" (القاضي17: 362)، وبالنظر إلى أخبار الكناش نجد الأخبار المركبة قليلة جدا، إذ لم نجد إلا خبرا واحدا مركبا نتيجة تكرار بنية بسيطة واحدة، وهي الاستخبار والإخبار وذلك في خبر الفيلالي "حدثني عن والده أنه كان يصلي بركن جامع القرويين، فعمل فيه بعض الناس عقدا بذلك، ثم أحضره القاض فكلمه، فقال: أنا مقر بفعل ما في هذا العقد، قال: ولم تفعل؟ قال: أنا عارف بعلم النجوم، وقد أداني اجتهادي إلى القبلة في الموضع الذي أصلي به، وإن كان ثمة من يعرف شيئا نتكلم معه؛ فإما أن يرجع إليّ أو أرجع إليه، قال له القاضي: ما سمعت قول الناس: اخطئ مع الناس ولا تصب وحدك؟ قال كذلك قيل لأبي بكر (رضي الله عنه) حين أسلم وحده وأخطأ الناس كلهم، فتركه القاضي وقال لأصحابه: إلى هنا أبلغتمونا أو ما في معنى هذا الكلام" (زروق1: 25) إذ بني هذا الخبر على عدد من أسئلة وأجوبة تكررت بين الشيخ والقاضي، والبنية الجوابية كثيرة في الأخبار العربية، وعماد هذه البنية تركيب " يقوم على تقديم طرف كلاما فيه ما يجهله المخاطب مما يدفعه إلى السؤال عنه، ثم تأتي إجابة السائل إلا أنه لا يقوم على الصراع، بل العكس إذ يقوم على طلب العلم والبيان" (جاسم19: 577).

ونلحظ أن عددا من الأخبار التي بدأت بسند وهي:

1- "حدثتني جدتي أنه كان يختم في كل ثلاثة أيام".
2- "فسمعت منه أنهم حسبوا الخارج من يده والداخل، فوجدوا الخارج أكثر".
3- "وقال: هكذا يكون الفقيه، وإلا فلا".
4- "وقالوا: لم تفارقه الشمائل من كمه عاملا بها".
5- "حدثتني جدتي أنه كان يختم القرآن في كل أسبوع".
6- "سمعت أنه كان يغلب عليه النحو، وأنه كان متصوفا، وأن سيدي عبد الله- ابن عمه- كتب له في كتاب: أقلل من علم الظاهر فإنه يقسي القلب، قلت بما يعرض فيه، لا بذاته".
7- "قالوا: كان لا يقرئها إلا بابن يونس".
8- "ذكروا أنه مات في "باب الفتوح"...".
9- "سمعته يقول: من سنة ثلاثة من هذه المائة وأنا أقرئ".
10- "وذكر خدمته لسيدي محمد بن عبد الله الزيتوني، والانتظام في سلكه، وما جرى له معه من خرق العوائد في أول حاله في خدمته، فقال- نفعنا الله به-: دخول سنة سبعين وثمانمئة كنت في خدمة سيدي محمد بن عبدالله الشهير بالزيتوني، فكان يعرفني في الأمور، وعرض له في تعمير زاوية بو قطوط من داخل باب الفتوح فتكلم مع الكاتب ومن في معناه من أصحاب السلطان أن يخرجوا له بها ظهيرا، فأخرجوه ، وكنت بها خديما للفقراء، فقدم علينا من تلامذة سيدي محمد الجزولي، قال الصغير: مات في صلاة الصبح إما في السجدة الثانية من الركعة الأولى، أو في السجدة الأولى من الركعة الثانية".
11- "قال لي بعض أهل الصدق والعدالة في الأخبار: رأيته في حياة الشيخ يأتيه بألواح مكتوب فيها كلام كثير منسوب إلى الخضر، فلا يقول له في ذلك شيئا. غير أنه أثنى عليه في ذلك كثيرا، فقال: جزاك الله عنا خيرا".

فكل هذه الأخبار لم يتحقق فيها أي من هذه البنى السابقة، وهو ما يجعلنا نخلص إلى أن نسبة الإخبارية السردية فيها ضعيفة، وبالمقابل نجد أن هناك نصوصا وردت عارية عن السند، بيد أن متونها قائمة على واحدة من هذه البنى مما يضفي عليها صفة السردية، فنسبة الإخبارية السردية في متنها مرتفعة مقارنة ببعض الأخبار التي بنيت على السند، كما في خبر الأنفاسي "احتاج الناس فطلبوا منه الاستسقاء، فوعدهم لثالث يوم. فلما كان من الغد أخرج ما عنده من الزرع فتصدق به، وكان كثيرا. فلما كان من الغد رأيته يبكي في صحن الجامع، وقال: الآن أبكي كما يبكي المسلمون، ثم استسقى. فما رجع الناس إلا بالمطر" (زروق1: 2)، بالرغم من أن الخبر عار من السند لكنه انبنى على ثنائية الطلب والاستجابة ولكنها تكررت؛ فمن جهة تضمن طلب الناس الاستسقاء من

الشيخ، واستجابة الشيخ "فوعدهم لثالث يوم... ثم استسقى"، ومن جهة أخرى تضمن طلب الشيخ المطر من الله "ثم استسقى" وحصول الطلب "فما رجع إلا بالمطر". وتكرار بنية الطلب وسم بنيته بالمركبة.

ثانيا: مستوى الخطاب

إن الخبر بوصفه منجزا أدبيا يدرس ضمن إطار القصة؛ لأنه" يشكل أبسط الوحدات الحدثية الصغرى التي تتركب منها القصة، بوصفها نصًّا مؤلفا من مجموعة أخبار في نص طويل واحد" (سوالمية، 22: 558)، وفي مستوى الخطاب سنقوم بتحليله من زاويتين؛ زمن السرد، وأنماط الرؤية.

أ – زمن السرد

1 _ الترتيب

يقصد به دراسة العلاقة بين زمن المادة الحكائية كما تقع في الواقع وفق ترتيبها الزمني الطبيعي، وبين زمن الخطاب وهو إعادة توزيع المادة الحكائية زمنيا بما يتوافق مع غايات الراوي (يقطين13: 49)، وتتحدد دراسة الترتيب في الخبر من خلال البحث في العلاقة بين زمن الخبر وزمن الخطاب (القاضي17: 397)، ويندرج تحت الترتيب الزمني للأحداث: سرعتها وتواترها، ويأخذ الترتيب الزمني في الخبر شكل الترتيب الزمني في الحكاية حيث "يتبين بمقارنة ترتيب الأحداث أو المقاطع الزمنية في الخطاب السردي بنظام تتابع هذه الأحداث أو المقاطع نفسها في الحكاية" (القاضي30: 87)، وبدل أن ندرس المفارقة بين زمن الحكاية وزمن الخطاب سندرس الترتيب بين السند والمتن في الخطاب، فالسند في الخطاب سبق ظهوره المتنَ، وبالنظر إلى زمن ظهورهما في الواقع نجد أن المتن بما يتضمنه من أحداث وأقوال ظهر أولا ثم تناقلتها ألسنة الرواة، ونتوصل من ذلك إلى أن ترتيب السند والمتن في الكناش شأنه شأن ترتيبهما في سائر الأخبار، ومثال ذلك في الكناش خبر العبدوسي "حدثت زوجته أنه كان يعمل الخوص بخفية ويعطيها رجلا لا يعرف أنها له، يبيعها ثم يتقوت بها في رمضان" (زروق1: 19) فحدث صنع العبدوسي للخوص والتصدق بها وتقوت الرجل بها وقع أولا ثم أخبرت زوجته عنه.

وبالنظر أيضا إلى ترتيب الأحداث والأقوال في الخطاب (المتن) في جميع الأخبار عينة الدراسة نجدها تترابط زمنيا حيث تأتي الواحدة تلو الأخرى، ومن ذلك ما وضحناه سابقا في خبر العبدوسي، فجميع الأحداث فيه ترابطت زمنيًا؛ فكانت البداية بعمل الخوص للتصدق بها، ثم التصدق بها على رجل، ثم بيع الرجل الصدقة، ثم تقوت الرجل بثمن الصدقة في رمضان، وهذا ما نجده في جميع الأخبار. وهي تترابط سببيا، فصنع العبدوسي الخوص

لأجل الصدقة، وبيع الرجل للخوص للتقوت بها. وأيضا إذا نظرنا إلى الترتيب في سلسلة الرواة نجد أن الرواي الذي هو الأول في الواقع، يظهر هو الأخير في سلسلة الرواة، وهو شأن جميع الأسانيد في الأخبار.

وبالنسبة إلى سرعة الأحداث، فالخطاب الخبري يتميز بالسرد المجمل (القاضي17: 398)، ويقصد به السرد المختصر الذي يختزل الوقائع (القاضي30: 373)، ويسمى أيضا بالخلاصة فهو " سرد أحداث ووقائع جرت في مدة طويلة (سنوات، أو أشهر) في جملة واحدة أو كلمات قليلة، إنه حكي موجز وسريع وعابر للأحداث دون التعرض لتفاصيلها، يقوم بوظيفة تلخيصها" (بوعزة15: 93)، وهذا السرد المجمل غالبا ما يكون تمهيدًا وضبطًا للإطار يؤول إلى السرد المشهدي والمتمثل عادة في أقوال الشخصيات (القاضي 17: 398).

وبتتبع الخطاب السردي في الأخبار عينة الدراسة نجد أن السرد المهيمن عليها هو السرد المجمل الذي جعل زمن السرد يتسم بالسرعة، وتقل سرعته أحيانا باستعمال المشهد الحواري الذي يضفي ضربا من التساوي بين الزمن الواقعي للأحدث وزمنها في الخطاب، و" تتساوى سرعة الحكاية وسرعة القراءة؛ لأن السرد ينقل كل ما قيل في الحوار بلا زيادة ولا نقصان" (زيتوني29: 154)، وبعض الأخبار تبدأ بسرد مجمل يفضي إلى المشهد، وورد ذلك في خبرين: الأول "حدثني شيخنا أبو عبد الله بن زمام –وكان صاحبه– أنه قال له: "كنت عاميا عفيفا صاحب همة وعزيمة، ما سبقني للضيف أحد قط بالمسجد، وكنت كلما جاءني ضيف أخذت من ثوبه خيطا فجعلته في كبة كانت عندي من ذلك، قد جعلتها في ذراعي مع الحرز، فلما كان ذات ليلة ألقيتها في النار، فاحترق نصفها وبقي النصف الآخر تلعب عليه النار ولا تحرقه، فاضطرني ذلك إلى التوبة، فتبت، وقلت في نفسي: ليس ثمة اليوم شيخ ظاهر في الأحياء، وإذن فلاتخذ الشيخ القادر والشيخ أبالا يعزى وسيلة إلى الله، ثم نظرت فإذا زيارة الشيخ عبدالقادر غير ممكنة، فأقمت عند قبر الشيخ أبي يعزى واحدا وعشرين يوما، أقوم الليل وأصوم النهار، ولا أفتر عن الذكر، فنمت في آخر القائلة فإذا القبر قد انفتح وأتى رجل عليه عمامة كبيرة، فوقف على صاحبه وقال: أعطه حاجتاه، فقال: ما هي لي وحدي، فقال: اعطه، فأعطاني علما، فاستيقظت مسرورا به، فإذا برجل مصمودي على باب المسجد يقول: هنيئا بقضاء الحاجة، فقمت في طلبه فلم جده، ثم جرى حاله بعد ذلك" (زروق 1: 22–23)، فالخبر بدأ بسرد مجمل واحتل أكبر مساحة من السرد ثم انتقل إلى المشهد، وهو قليل جدا مقارنة بالسرد المجمل، ثم عاد ليختم الخبر بالسرد المجمل، والخبر الآخر "وحدثني عن والده أنه كان يصلي بركن "جامع القرويين"، فعمل فيه بعض الناس عقدا بذلك، ثم أحضره القاضي فكلمه، فلقال: أنا مقر بفعل ما في هذا العقد، قال: ولم تفعل؟ قال أنا عارف بعلم النجوم، وقد أداني اجتهادي إلى أن القبلة في هذا الموضع الذي أصلي به، وإن كان ثمة من يعرف شيئا نتكلم معه؛ فإما أن يرجع إليّ أو أرجع إليه، قال له القاضي: ما سمعت قول الناس: اخطأ مع الناس ولا تصب وحدك، قال: كذلك قيل لأبي بكر رضي الله عنه حين أسلم وحده وأخطأ الناس كلهم، فتركه القاضي وقال لأصحابه: "إلى هنا أبلغتمونا" أو ما في معنى هذا الكلام" (زروق1: 25)، قد بدأ هذا الخبر بسرد مجمل يسهم في إسراع حركة السرد، ولكن هذا السرد المجمل قصير جدا، لا يعدو أن يكون تمهيدا لضبط

الإطار يفضي إلى سرد مشهدي يحتل المساحة الأكبر من السرد، ومن ثم يقلل من سرعته ويضفي عليه نوعا من البطء، وهذا البطء في حركة السرد أوجبته الوظيفة الإخبارية أو الإعلام بالمحتوى الذي يريد الراوي إبلاغه للمروي له.

وبعض الأخبار تبدأ بالمشهد ثم تفضي إلى سرد مجمل ومثالها خبران: أحدهما: "سمعت أنه قال لعلي بن يوسف: "الله يتلف رأيك"! فلم يستقم له رأي بعد" (زروق1: 26)، والآخر: "وقلت له آخر تلك الليلة: أناس يذكرون فيك شأن الفاطمي، فاخرج؛ فقال: ما يدورون إلا ما يقطع رقابهم، والله يسلط عليهم من يقطع رقابهم، كرر الدعاء مرارا، فكان ظهور دعوته في عمر المغيطي" (زروق1: 26)، وبعض الأخبار سرد مجمل غير مصحوب بسرد مشهدي حواري، وجاء ذلك في أربعة أخبار: خبر الوزروالي "وذكرت من خيرته أمورا حدثها بها، منها أنه دخل مدينة فاس وليس عنده شيء، واشتغل بنسخ الأمهات ودراسة التهذيب. وكان يسأل دارا ورزقا حلالا، قال: فبعت المدونة بثمن غال، فحرثت به، فصادف الغلاء عند الزرع، فاشتريت هذه الدار كما أحب واستمر لي الخير" (زروق1: 19)، وخبر العبدوسي "حدثت زوجته أنه كان يعمل الخوص بخفية ويعطيها رجلا لا يعرف أنها له، يبيعها ثم يتقوت بها في رمضان" (زروق1: 19)، وفي خبر العبدوسي أيضا "فسمعت منه أنهم حسبوا الخارج من يده والداخل، فوجدوا الخارج أكثر" (زروق1: 19) والخبر الأخير أيضا للعبدوسي "وحدثنا أنه حفظ "مختصر مسلم" القرطبي، وكل خميس خمسة أحاديث كان أبوه يعطيه عليها درهما "(زروق1: 19).

ونخلص إلى أن الأخبار في الكناش لا تختلف في زمنيتها السردية عما هو ملاحظ في الزمن بالخبر العربي عموما، إذ يتميز الخبر "بضيق المساحة الزمنية التي انحصرت في تقديم الحدث الوحيد والمنفرد والذي لا يتسع إلى تنويع التقنيات الزمنية [...] فتغيب فيه المشاهد الحوارية أو تتميز بقصرها وهيمنة التلخيص والسرعة في تقديم مراحل الحدث، أضف إلى ذلك غياب المؤشرات الزمنية التي تموقع الحدث وتؤسس له مرجعية زمنية يتأطر فيها" (جبار11: 123).

2 _ التواتر

يقصد بالتواتر قياس "العلاقة بين نسب تكرار الحدث في الحكاية ونسب تكراره في الخطاب" (القاضي30: 122) فالغالب في الأخبار العربية القديمة هو السرد الإفرادي" الذي يحكي في الخطاب مرة واحدة ما جرى مرة واحدة في القصة" (يقطين12: 78) وأحيانا تستعمل السرد المؤلف[iii] (القاضي17: 308–308)، الذي "ينقل في الخطاب مرة واحدة، ما حصل في القصة أكثر من مرة" (قسومة 10: ج2، 19)، وبتتبع التواتر في أخبار الكناش نجد أن السرد المهيمن عليها هو السرد الإفراد، وتجنح بعض الأخبار إلى استعمال السرد المؤلف من ذلك "كان يختم في كل ثلاثة أيام" (زروق1: 18)، و"أنه كان يختم القرآن في كل أسبوع" (زروق1: 19)، و"كرر الدعاء مرارا" (زروق1: 26)، و"في كل خميس خمسة أحاديث كان أبوه يعطيه عليها درهما" (زروق1: 19).

ب _أنماط الرؤية

تنوع تقديم الرؤية في أخبار الكناش وكانت على ثلاثة مستويات:

1- الرؤية المصاحبة

يستخدم الراوي ضمير المتكلم، وتصنيفه راوٍ مشارك، والمقصود يشارك في الخبر الذي يرويه (يقطين12: 309)، والرؤية فيها مصاحبة؛ لأن الراوي "متساو مع الشخصية في علمه أي أنه يقدم ما يعلمه بلا زيادة أو نقصان "(قسومة 10: 54)، وقد تضمن الكناش ثلاثة أخبار ورد فيها الراوي المشارك: مرتان في خبر العطار، الأول "حدثني شيخنا أبو عبد الله بن زمام– وكان صاحبه– أنه قال له: "كنت عاميا عفيفا صاحب همة وعزيمة، ما سبقني للضيف أحد قط بالمسجد، وكنت كلما جاءني ضيف أخذت من ثوبه خيطا، فجعلته في كبة كانت عندي من ذلك، قد جعلتها في ذراعي مع الحرز، فلما كان ذات ليلة ألقيتها في النار، فاحترق نصفها وبقي النصف الآخر تلعب عليه النار ولا تحرقه، فاضطرني ذلك إلى التوبة، فتبت، وقلت في نفسي: ليس ثمة اليوم شيخ ظاهر في الأحياء، وإذن فلاتخذ الشيخ القادر والشيخ أبا يعزى وسيلة إلى الله، ثم نظرت فإذا زيارة الشيخ عبدالقادر غير ممكنة، فأقمت عند قبر الشيخ أبي يعزى واحدا وعشرين يوما، أقوم الليل وأصوم النهار، ولا أفتر عن الذكر، فنمت في آخر القائلة فإذا القبر قد انفتح وأتى رجل عليه عمامة كبيرة، فوقف على صاحبه وقال: أعطه حاجتاه، فقال: ما هي لي وحدي، فقال: اعطه، فأعطاني علما، فاستيقظت مسرورا به، فإذا برجل مصمودي على باب المسجد يقول: هنيئا بقضاء الحاجة، فقمت في طلبه فلم جده، ثم جرى حاله بعد ذلك"، والآخر "ما معنى الأولياء يظلمون الناس في أمورهم هكذا"؟ فقلت ما مقتضاه: إنما هي مجازاة وعقوبة من الله تعالى" (زروق1: 23–24)، ومرة واحدة في خبر عمر المغيطي "وقلت له آخر تلك الليلة: أناس يذكرون فيك شأن الفاطمي، فاخرج؛ فقال: ما يدورون إلا ما يقطع رقابهم، والله يسلط عليهم من يقطع رقابهم، كرر الدعاء مرارا؛ فكان ظهور دعوته في عمر المغيطي" (زروق1: 26).

2- الرؤية من الخارج

يستخدم الراوي بضمير الغائب والرؤية فيها من الخارج، فالراوي هنا "يعتمد كثيرا على الوصف الخارجي، أي يصف الحركة والأصوات" (لحميداني9: 48)، نجد ذلك في خبر الفشتالي "حدثتني جدتي أنه كان يختم القرآن في كل أسبوع"[iv] (زروق1: 18)، وخبر الفيلالي في موضعين؛ الأول "وحدثني شيخنا أبو عبدالله القوري– رحمه الله– أن سيدي أحمد تكلم مع سيدي عمر في أمر فقال سيدي أحمد: يلطف الله، فقال له سيدي عمر: ومن قال لك يلطف؟ فقال: "ياسيديّ حسن الظن بالله أولى من إساءة الظن به "(زروق1: 243) والآخر "وحدثني عن والده أنه كان يصلي بركن جامع القرويين، فعمل فيه بعض الناس عقدا بذلك، ثم أحضره القاضي فكلمه، فقال: أنا مقر بفعل ما في هذا العقد، قال: ولم تفعل ؟، قال أنا عارف بعلم النجوم، وقد أداني اجتهادي إلى أن القبلة في هذا الموضع الذي أصلي به، وإن كان ثمة من يعرف شيئا نتكلم معه؛ فإما أن يرجع إليّ أو أرجع إليه، قال له القاضي: ما سمعت قول الناس: اخطأ مع الناس ولا تصب وحدك، قال: كذلك قيل لأبي بكر رضي الله عنه حين

أسلم وحده وأخطأ الناس كلهم، فتركه القاضي وقال لأصحابه: إلى هنا أبلغتمونا" أو ما في معنى هذا الكلام" (زروق1: 25)، وغلبة الوظيفة الوعظية للأخبار جعل البؤرة التي تركز عليها هذه الأخبار هي" الإخبار عن الكيفية التي كانت تؤدى بها تلك الأفعال من قبل الشخصيات؛ لأن المهم في الخبر إبراز حادثة أو سلوك (حسن سيء) بغية تركه أو اتباعه" (عابد21: 15).

3- الرؤية من الخلف

يرد الخبر بضمير الغائب ثم ينقل إلى ضمير المتكلم، والرؤية فيه ليست مصاحبة وإنما رؤية من الخلف، فالتبئير "الذي يستعمل، هو من قبيل الصفر، إذ هو عارف بتفاصيل القصة وبالنتائج التي انتهت إليها"، نجد ذلك في خبر الوزروالي "وذكرت من خيرته أمورا حدثها بها، منها أنه دخل مدينة فاس وليس عنده شيء، واشتغل بنسخ الأمهات ودراسة التهذيب. وكان يسأل دارا ورزقا حلالا، قال: فبعت المدونة بثمن غال، فحرثت به، فصادف الغلاء عند الزرع، فاشتريت هذه الدار كما أحب واستمر لي الخير" (زروق1:19).

الخاتمة

توصل البحث مجيبا عن جزأي سؤال الدراسة إلى أن الكناش تضمن أخبارا وما جعل منها أخبارا هو تضمنها بنية السند والمتن، وأن بعض أخبارها ارتفعت فيها درجة السردية وانحط في بعضها الآخر، وقد خلص الباحث إلى جملة من النتائج أجملها في الآتي:

1- هيمنت عبارات السماع على السند وتنوعت ما بين (سمع، حدث، قال، شاع، بلغني، عن).

2- تعدد الرواة في بعض الأخبار وتراوح التعدد ما بين الدرجة الثانية والثالثة.

3- الأخبار بدأت بسند وبعضها أعلن عن نهايتها سند، وبعض أنبأ عن نهايتها تغير الموضوع والمقام والشخصيات.

4- قلة سلسلة الرواة بسبب معاصرته للأحداث ومعاصرته لمن عاصرها.

5- قيام الأخبار على الإيجاز والاقتصار

6- بعض الأخبار وردت عارية عن السند ومع ذلك اقتربت من شكل الخبر في متنها وارتفعت السردية فيها.

7- اتسم جميع الأخبار بالبنية البسيطة، باستثناء خبر واحدا جاءت بنيته مركبة.

8- البنية البسيطة المهيمنة هي بنية الطلب والاستجابة، وتليها بنية التحول.

9- وبنية الطلب والاستجابة تنوعت ما بين الطلب وحصوله، والأمر وتنفيذه، والاستخبار والإخبار، والدعاء واستجابته.

10- سرعة السرد بسبب هيمنة الأسلوب المجمل وبعض الأخبار تشهد حركة السرد فيها بعض البطء بسبب السرد المشهدي المتضمن حوارا.

11- الراوي في بعض الأخبار خارجي بضمير الغائب، وبعضها راو مندرج في الحكاية وبضمير المتكلم

12- الرؤية تنوعت ما بين الرؤية الخارجية والرؤية مع والرؤية من الخلف.

المصادر والمراجع

- أحمد السماوي، فن السرد في قصص طه حسين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس، ط1، 2002م، ص211.
- التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق: عبدالحميد الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط1، د.ت.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م.
- حميد لحميداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1991م.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، لبنان، ط5، 1980م.
- زروق، أحمد، الكناش صور من الذكريات الأولى، تقديم وتحقيق: علي فهمي خشيم، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، ط1، 1980م.
- الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، دار الجنوب، تونس، ط2، 2015م.
- سعيد جبار، الخبر في السرد العربي التوابث والمتغيرات، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2004م.
- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط4، 2005م.
- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1989،1م.
- سعيد يقطين، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997م.
- العياشي، ماء الموائد، الرحلة، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد وآخرون، دار نشر المعارف، الإسكندرية، ط1، د.ت.
- ابن غلبون، التذكار، تحقيق: الطاهر الزاوي، دار المدار الإسلامي، بيروت.
- القالي، إسماعيل، الأمالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1966م، ج1.
- لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 2002م.
- محمد الخبو، الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة من سنة 1976إلى سنة 1986، دار صامد، صفاقس، ط1، 2003م.
- محمد بوعزة، تحليل النص السردي، تقنيات ومفاهيم، منشورات الاختلاف، الرباط، ط1، 2010م.
- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، دراسة في السردية العربية، كلية الآداب– منوبة– تونس، ط1، 1998.
- محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2010.

- ابن منظور، لسان العرب المحيط، رتبه: يوسف خياط، دار الجيل، بيروت، ط1، 1988م.
- الوشاء، محمد بن أحمد، الموشى أو الظرف والظرفاء، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1990م.

ثانيًا: الدوريات العلمية

- أسماء صابر جاسم، بنية السرد في كتاب التذكرة الحمدونية لابن حمدون (ت562هـ) دراسة تركيبية خطابية، مجلة كلية العلوم التربوية والإنسانية، جامعة الموصل، العدد 26، نيسان 2016م، ص577.
- أبوبكر سويسي، الخبر في التراث الأدبي، مجلة الجامعة الأسمرية، زليتن، السنة 5، العدد 9، 2008م، ص225.
- رشا جليس، سرديات الأمل، دراسة في أخبار الفرج بعد الشدة للتنوخي، مجلة الدراسات العربية، الأردن، العدد 2، سنة 2023م، ص 72
- رشيدة عابد، الخبر في السرد العربي وقضايا التصنيف، مجلة الخطاب، الجزائر، العدد 10، جانفي 2012م، ص 15.
- سوالمية سمير، شعرية الخبر عند أبي حيان التوحيدي، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، جامعة 20أوت 1955م، بسكرة– الجزائر، مجلد18، العدد16، 30 يونيو2018م، ص558.
- شاكر هادي التميمي ورائد حامد خضير، كتب أخبار النساء والجواري حتى نهاية القرن العاشر الهجري أنموذجا، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العراق، المجلد 17، العدد 2، سنة 2017م، ص39.
- شيماء خيري فاهم، التشكيل والبناء السردي في أخبار الأذكياء لأبي الفرج بن الجوزي (ت597هـ)، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، العراق، المجلد22، العدد3، السنة 2019م.
- عبدالوهاب شعلان، السرد العربي القديم البنية السوسيوثقافية والخصوصيات الجمالية، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، المجلد 35، العدد412، أغسطس 2005، ص132.
- فايزة لولو، خصائص السرد العربي القديم، حوليات جامعة قالمة للغات والآداب، الجزائر، العدد 19، جوان 2017م، ص34.
- ليندة عباس، سردية النص الخبري، اليوم الدراسي: السرد العربي القديم النص والثقافة، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة محمد البشير الإبراهيمي، الجزائر، 2،26، 2016م، ص6.

ثالثًا: الرسائل العلمية

- نجاة فغالي، الخبر في الأدب المغربي القديم، أطروحة دكتوراة مرقونة، كلية الأدب العربي والفنون، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2018م.

[i] - توجد نسخة أخرى مطبوعة تحت عنوان: فوائد من كناش العارف بالله أحمد زروق، تحقيق: محمد إدريس طيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2011م، وفضلنا نسخة ليبيا لكونها الأقدم، وقد اعتمد الدكتور علي فهمي خشيم في تحقيقها على مخطوطتين؛ الأولى بدار الكتب التونسية، والثانية بالمكتبة العامة بالرباط، في حين اعتمد محمد إدريس طيب على النسخة التونسية فقط.

[ii] – ومن وجهة نظر تلفظية– وهي ليس مجال بحثنا هنا– التي لا تشرط ذكر السند وتعتمد على الفصل بين السياقين، سنجد أنه بجانب النماذج السابقة التي لعب السرد دور معلن البداية في الخبر ثمة أخبار لم ينهض السند بدور معلن بداية عنها لأنه وردت عارية عن السند، ومن ثم ينهض تغير الموضوع أو المقام أو الشخصيات بدور معلن البداية والنهاية كما في: "واحتاج الناس فطلبوا منه الاستسقاء...فما رجع إلا بالمطر، توفي رحمة الله عليه سنة..."

[iii] -أنبه إلى أنه في كتاب القاضي: الخبر في الأدب العربي، ورد مصطلح قص تكراري وبدا لي أن الصواب مؤلف. فعدلته أعلاه.

[iv] - أحمد زروق، الكناش، ص 18.